رسوم وتقاليد تعيين الحجاب بالأندلس في العهد الأموي
(138–422هـ) / (756–1031م)

د. قدور وهراني
جامعة تلمسان

كان للأُمويّين فضل كبير في تأسيس نظام إداري وسياسي سارت عليه الدولة والمجتمع في الأندلس خاصة، وفي المغرب الإسلامي عامة لعقود عديدة، من خلال إرساء القواعد، وتحديد العلاقة بين مختلف الوظائف الإدارية الدينية والسياسية والاقتصادية، فقد كان تأثيرهم واضحاً في الكيانات السياسية التي جاءت بعدهم.

يعتبر الأمير رأس الهيكل الإداري ومحوره الأساسي وكانت كل المناصب السياسية والإدارية الأخرى تدور في فلكه، وكان للحاجب دور اساسي في الربط بين الأمير وأعضاء الإدارة الأموية بالأندلس، ولا يمكن لأيٍّ كان من أعضاء الإدارة اتّخاذ القرارات الهامة دون الرجوع إليه.

اهتم الأمويون كثير باختيار وانتقاء الرجال الأكفاء لمنصب الحاجب، وقد تعدى الامر إلى تكوينهم وتدريبهم قبل تعيينهم في أهم منصب في الدولة، فقد تَحَمَّلَ الحُجَّابُ في كثير من الأحيان أعباءً ومهاماً سياسية وعسكرية لم يكونوا في مستواها لولا التكوين الذي استفادوا منه من خلال مسيرتهم في صعود سُلَّم وظائف الدولة، فهل المؤهلات والكفاءات الشخصية هي المعيار الوحيد لاختيار الحاجب؟ وهل كانت الحجابة حِكراً على رجال من أسرٍ معينةٍ فتداولوها فيما بينهم، وتوارثوا هذا المنصب فلم تخرج منهم؟ وهل هناك شروط ومعايير أخرى كانت تُراعى عند تعيين الحاجب؟

نظراً للأهمية التي أصبحت تحتلها الحجابة في تنظيم الإدارة الأندلسية، دأب الحُكَّام الأمويون على اختيار رجال ثقات وأكفاء لهذا المنصب، بالإضافة إلى صفات ومميزات يجب أن تتوافر فيمن يقع عليهم الاختيار، فكانت الميزة المشتركة بين أغلب هؤلاء الأمراء هي القيام بمجموعة من التعيينات الجديدة على رأس الإدارة أوَّل مبايعتهم على الحُكم، وحتى لو احتفظ أحدهم بنفس رجال سلفه، فذلك لفترة قصيرة يتمكن من خلالها التعرف على خبايا الدولة ثم يشرع في تعديل جهازه الإداري بعد ذلك، فـ"عبد الرحمن الناصر" قام بتعيين "بدر بن أحمد" حاجباً (1) نظرا لحاجته الملحة لوجود رجل دولة وقائد عسكري يُعِينُه على القضاء على الفتن المنتشرة في البلاد. أما ابنه "الحَكم المستنصر" فقد استعان بحاجبه "جعفر بن عبد الرحمن" في إنجاز الكثير من الأعمال العمرانية، وكان تعيينه له بمجرّد مبايعته على الحُكم سنة (366هـ/ 1031م) (2). أما الأمير "عبد الرحمن الأوسط" فرغم التغييرات الكثيرة التي أجراها على نظام الحُكم والإدارة الأندلسية فقد احتفظ بحاجب أبيه "الحَكم الربضي" "عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث" للاستفادة من تجربته السياسية الكبيرة فقد كان ضليعاً في القيادة العسكرية والكتابة الديوانية والأعمال الإدارية المختلفة، وقد وصف "ابن الأبار" تعدد محاسن هذا الحاجب أحسن وصف(3).

غير أنّ الأمور تختلف عند الحديث عن شروط تعيين الحاجب فلا يوجد شيء مُحدّد في هذا الأمر، وبخلاف ما هو الحال عليه عندما يتعلّق الأمر بتعيين القضاة مثلاً، فإذا كان للقاضي شروط معروفة سلفاً خاض فيها علماء الفقه والنُظم الإسلامية، ومنها البُلوغ والذُكورة والإسلام والحرية والعدالة وسلامة الحواس من سمعٍ وبصرٍ، زيادة على الدِّراية بالأحكام الشرعية(4)، فإنّهم

تحدثوا عن معايير عامة عند التطرّق للقضية نفسها عند الحاجب أو حتى الوزير. ويمكن أن نقول إنّ ما يُسمى بالشروط عند القاضي يُسمى بالمعايير أو المُواصفات عند الحاجب. ذلك أنّ طبيعة منصب القاضي تختلف عن طبيعة منصب الحاجب، فالأول خطة دينية تعتمد على الاجتهاد الفقهي، والثاني سياسية تعتمد على وجهة نظر كل حاكم وكذا على تصوره لمحيطه السياسي. ويُمكن تلخيص المعايير ومواصفات تعيين الحاجب فيما يلي:

1- المواصفات الشخصية: يمكن اعتبار العدالة والعفة والأمانة من أكثر المعايير المطلوب مراعاتها عند تعيين الحُجَّاب(5)، ويعود الفضل للتكوين الشخصي في اكتساب الحاجب لهذه الصفات لأنّها نابعة من التنشئة الأسرية ثم من المكتسبات العلمية، فقد نشأ معظم حُجَّاب الدولة الأموية في الأندلس في أسر مقربة من البيت الحاكم مما سمح لهم بأن يتلقوا تربية جيدة، فقد نشأ "جعفر بن عثمان المُصحفي" قريباً من "الحكم المستنصر" لأنّ والد الحاجب كان مُؤَدِّبَ الخليفة فغرس في "جعفر" ملكة الشعر، وغرس في "الحَكم" حبَّه للعلم.

ويمكن أن نلاحظ فارقاً مهماً يميز بين حاجبٍ وآخر، وذلك لأنّ الأنظمة الإدارية التي تحكم الموظف والوظيفة تختلف في ضوابطها من مرحلة لأخرى ومن شخص لآخر، فقد كان الحاجب "عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث" يقبل الهدية ويقِّدم صاحبها، وكان الحاجب "عيسى بن شهيد" يرفضها ويهجر صاحبها(6)، ورغم الاختلاف بين الرجلين فهذا لا يُنقص من قيمة الحاجب "ابن مغيث" فقد كانت له إسهامات مشهودة في تطوير الإدارة الأموية بالأندلس.

ومن المُستحب أن تتوافر في الحاجب صفات أخرى تساعده على الأداء الجيد لمهامه، ومنها أن يكون حسن المنظر، جميل المخبر، عارفاً بمقادير

الناس، بعيداً عن الهوى، معتدلاً بين الشدة واللين (7). غير أنّ هذه المعايير لم تكن مطلقة عند اختيار الحاجب، فقد كان الحاجب "عيسى بن الحسن بن أبي عبدة" رثيثاً بعيداً عن الرشاقة في الخدمة، تغلب عليه غفلة السلامة(8)، وكثيراً ما كان عرضة لمكائد الوزراء بسبب ذلك (9)، لكنّ علم الأمير بهذا الصراع واستيعابه له جعل الحاجب في مأمن من نتائجه السلبية.

ويمكن أن تكون المواصفات الدينية كالورع مقياسا للارتقاء إلى منصب الحجابة مثلما حدث في أواخر أيام الدولة الأموية يوم انعدمت الأخلاق السامية في السياسية، فقد استحجب "المستظهر" "أبا محمد بن أحمد بن حزم"، وكانت التقوى والزهد صفتا الرجلين، لكن لم تدُم تجربتهما السياسية أكثر من سبعة أسابيع، فقُتل الخليفة وانصرف الحاجب لحياة العلم والزهد والعبادة(10).

2 – أولوية إسناد الحجابة إلى موالي بني أمية:

حَرِصَ الحُكَّام الأمويون على تعيين مواليهم في الخطط الشريفة، فهذا الأمير "محمد" كان يفضل ركوب سنن سلفه في إحياء بيوتات الشرف، حتى وصل به الأمر تفضيل بعضهم رغم قلة صنعته، وقد رَدَّ يوماً على انتقاد "هاشم بن عبد العزيز" في تعيين "عبد الملك بن أمية" في منصب الكتابة العليا قائلاً: «مهلاً يا هاشم! فقد علمنا أنك ما قلت إلا بالنصيحة لنا والرغبة في رفعة الخدمة لنا، غير أنّ مذهبنا أن نقصر لخططنا هذه النبيهة على أبناء موالينا وأهل السوابق في خدمتنا، وأن نخلفكم فيمن بعدكم بما خلفنا به فيكم من قبلكم، ولو كنا فارقنا هذا المذهب لما اتصلت النعم إلى صلحاء موالينا، وذوي القدمة في خدمتنا، وهذا أمر يجب عليك أن تقف على مقدار النعمة فيه عليك وعلى ذويك، وتقل عليه الملامة» (11). فاعتذر له هاشم من

قوله، وتشكر فعله، واستكرم رأيه، واعترف بصواب رأيه، وأقصر عن ذكر "ابن أمية"(12).

لقد تنَّوع موالي بني أمية بين من سبقوا "عبد الرحمن الداخل" إلى الأندلس، وينتمون إلى موالي العتاق وقد كان لهم اتصال بهم في الشام، ومواليهم بالاصطناع وهم الذين كان لهم اتّصال بهم بعد قدومهم إلى الأندلس. وقد حرص بنو أمية على تولية الحجابة مواليهم بغض النظر لأي نوع من الموالي كان النصيب الأوفر في ذلك، مع وجود قاعدة سياسية دأب الحُكَّام على الحفاظ عليها وهي تقديم الموالي من العتاق على الموالي من الاصطناع، أو بمصطلح آخر تقديم الشامي على البلدي (13)، ويرجع "ابن خلدون" سبب التحام المَوالي بمُصطنعيهم إلى العشرة والمُدافعة وطول المُمارسة والصحبة بالمَربى والرِّضاع، وإذا حصل الالتحام بذلك جاءت النعرة والتناصر(14).

لقد غالى الأمويون في تكليف مواليهم بهذا المنصب، فقد كان تعيين بعضهم على حساب المصلحة العليا للدولة، وكان ذلك يَتِمُّ في بعض الأحيان دون مراعاة لمعايير العدالة والعفة والأمانة، وهذا ما جرَّ الدولة إلى فتن لا نهاية لها، فقد سكت الأمير "محمد بن عبد الرحمن" عن سوء تصرفات مُدبِّر دولته "هاشم بن عبد العزيز" رغم كثرة شكاوى الرعية منه واكتفى بمجرد تنبيهه على ذلك قائلاً: «يا هاشم من آثر السرعة أفضت به إلى الهفوة، ولو أنَّا أصغينا نحو زلاتك وأصَخْنا إلى هفواتك لكنّا شركاءك في الزلة وقسماءك في العجلة، فمهلاً عليك رويداً بك، فإنك إن تعجل يُعجل بك» (15).

ورغم أن هذه الأُسر كان لها الأفضلية في شغل هذه المناصب إلا أنّ أفرادها مثل غيرهم من الحُجَّاب كان عليهم أن يتمرسوا في المناصب الدُنيا حتى يصلوا إلى أعلى منصب في الدولة بعد الأمير أو الخليفة وهو منصب الحاجب،

فقد ولى "عبد الرحمن الناصر" الوزارة في بداية عهده رجل من "آل حدير" وهم من موالي بني أمية وهو "موسى بن محمد بن حدير"، وأعيد على خطة المدينة التي كان قد شغلها زمن الأمير "عبد الله" (16)، وكثيرا ما كان يستخلفه في القصر حينما كان يخرج للغزو (17).

كانت أول وأهم الأسر اشتغالا بمنصب الحجابة في تاريخ الدولة الأموية هي أسرة "المغيث"، ورأس هذه الأسرة في الأندلس هو "مغيث بن الحارث بن الحويرث بن جلبة بن الأيهم الغساني"، سُبِيَّ من الروم بالمشرق وهو صغير، فأدَّبه "عبد الملك بن مروان" مع ولده الوليد"، فصارت له مكانة مهمة في الدولة الأموية في المشرق، دخل الأندلس في الطلائع الأولى للفتح الإسلامي، فقدَّمه "طارق بن زياد" لفتح قرطبة، ووقع له مع "موسى بن نصير" خلاف كبير، فرحل معه ومع "طارق" إلى دمشق لطرح خلافهم على الخليفة، فعاد ظافراً إلى الأندلس، ولم يعرف له سنة ميلاد ولا وفاة (18)، وصار منه بنو مغيث الذين نجبوا في قرطبة، وسادوا وعظم بيتهم، ونالوا أعلى المناصب في الدولة في بداية عصر الإمارة، وكان أولهم "عبد الرحمن بن مغيث" حاجب "عبد الرحمن بن معاوية"(19)، ثم صاروا عماد الدولة في عهد "هشام الرضا" فَعُيِّنَ "عبد الواحد بن مغيث" في منصب الحاجب، وتولى ابناه "عبد الكريم" و"عبد الملك" قيادة كثير من الصوائف (20)، مما جعل الأمير "هشام" يثق فيهما ويليهما بعض المدن، فولى "عبد الكريم" كورة "جيان" بالإضافة إلى الحجابة، وولى عبد الملك "سرقسطة"(21). واستمرت هذه الأسرة في ممارسة مهامها في عهد "عبد الرحمن الأوسط"، فكان تعيين "عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث" في وظائف عديدة في الدولة بالإضافة إلى الحجابة(22).

و قد تقلص دور هذه الأسرة على مستوى الساحة السياسية سوف بمجرد وفاة الحاجب "عبد الكريم" سنة (209هـ/825م)، وذلك لأنّه لم يعد لهم ذكر في كتب التاريخ الأندلسي بعد ذلك ما عدا ما أورده "ابن حيان" عندما ذكر ما طلبه الأمير "محمد" من حاجبه "عيسى بن أبي عبدة" أن يبلغ "عبد الحميد بن عبد الواحد بن مغيث" صفحه وقد كان عَتِباً عليه قبل ذلك قائلاً: «أعلموه بصفحنا عما كان منه، وبحسن رأينا فيه، وأنا قد رأينا توليته الغرب كله اعترافا منا على كفايته، ولما قد سبق من عمله عليه وعمل سلفه قبله، وأنه منزلهم، وأنا جمعناه له إلى "قلمرية"(23)، فليعقد سجله، ولينظر في شأن مصيره»(24).

وقد مارست أفراد أسرة "آل المُغيث" نشاطهم جنباً إلى جنب مع أفراد أسر أخرى ومنها "آل أبي عبدة"، ويعود اتّصال هذه الأسرة بالأُمويين إلى دولتهم الأولى بالشام، إذْ كان جدهم "عبد الله" مملوكاً لـ"مروان بن الحَكم" فأبلى يوم وقيعة "مرج راهط"(25) بلاءً حسناً فأعتقه(26). والداخل إلى الأندلس من أجداد هذه الأسرة "حسان بن مالك بن عبد الله" وهو المسمى "أبو عبدة" وكان دخوله سنة (113هـ/731م)، أي قبل دخول "عبد الرحمن الداخل" بخمس وعشرين سنة، وكان لـ "حسان" أولاد قتلوا إلا "عبد غافر" لصغر سنه، فنشأ مع "عبد الرحمن بن معاوية"، وتأدَّب معه في المشرق. ولما قَدِمَ "بدر" مولى "عبد الرحمن" بخبره إلى مواليه الشاميين، كان "أبو عبدة" أول المرحبين به، فوجَّه ابنه "عبد غافر" إليه، ولما توطد حُكم "الداخل" أصبح لـ "أبي عبدة" شأن كبير في دولته فقد اتخذه من بين أهم مستشاريه(27)، ثم استعمله على القيادة وولاه "إشبيلية" فملك الغرب أجمع خمسة أعوام إلى أن تُوفي(28).

واشتهر العديد من أفراد أسرة "آل أبي عبدة" فشغل منهم الكثيرون منصب الحجابة بالإضافة إلى مناصب أخرى، فقد تولى "أبو أمية عبد غافر" الشرطة لـ "هشام الرضا"(29)، ثم عُين في الحجابة، وتولى حفظ خاتمه وخاتم ابنه "الحَكم الربضي"(30)، وقد أورد ابن الأبار" اسم عبد العزيز بن أبي عبدة" أخا "عبد غافر" أيضاً ضمن حُجَّاب الأمير الحكم الربضي(31)، وقد تصرّف بعد ذلك "أبو عثمان عبيد الله الغمر بن أبي عبدة" للأمير "عبد الله" في الكور وحجابة الأولاد، والمدينة والخيل والقيادة، ثم في الكتابة الخاصة والوزارة(32). وقد تولى "عيسى بن الحسن بن أبي عبدة" الحجابة للأمير "محمد" سنة (243هـ/857م) (33). وعرف عهد الأمير "عبد الله" أزهى أيام هذه الأسرة فقد جمع مجلسه أربعة وزراء منها(34).

ويتفرّع من هذه الأسرة "بنو جهور" الذين سادوا قرطبة بعد ذلك، وينسب هذا الفرع إلى الوزير "أبي حزم جهور بن عبيد الله بن محمد بن الغمر بن يحي بن عبد الغافر بن حسان بن عبد الملك المكنى بأبي عبدة" (35)، ولا ننسى أن نذكر "أبا محمد بن أحمد بن حزم" الذي حجب "عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر المستظهر بالله"(36) في السنوات الأخيرة من عمر الدولة الأموية (37).

ويجب التفريق بين "بني جهور البختيين"، وبين "بني جهور" الذين ينتمون إلى بيت "أبي عبدة"(38).

وقد كان بيت "آل شُهيد" من أهم البيوتات التي شغلت منصب الحجابة، ويعودون بنسبهم إلى "الوضاح الأشجعي" مولى "معاوية بن مروان بن الحكم"، وكان "الوضاح" مع "الضحاك بن قيس" في معركة "مرج راهط"

وجدّهم الداخل إلى الأندلس هو "شُهيد بن عيسى"، الوافد إليها زمن "عبد الرحمن الداخل"(39).

وقد كان لـ "عبد الرحمن" ثقة كبيرة في " شُهيد" (40)، حتى إنّه استخلفه على قصره حينما عزم على الخروج لإخماد ثورة "عبد الغفار اليحصبي" سنة (154هـ/771م) وكان له دور كبير في استتباب الأمر لـ "ابن معاوية" بالأندلس (41)، حيث أسندت له بعض المهام العسكرية، ومنها خروجه لقتال "وجيه الغساني (دحيه الغساني)" (42) بين سنتي (150هـ) و(160هـ) (43)، ثم أغزى تدمير (44) بصحبة "تمام بن علقمة" و"عبد الرحمن بن الحكم"، وهو ولي للعهد سنة (175هـ/ 792م)، وتصرّف بنوه بعده في مختلف الخطط من حجابة ووزارة والكتابة القيادة، إلى نهاية الدولة الأموية بالأندلس (45)، فقد عين الأمير "عبد الرحمن الأوسط" في منصب الحجابة "عيسى بن شهيد" سنة (218هـ/ 833م) مكان "سفيان بن عبد ربه"، واستمر فيها حتى وفاته سنة (243هـ/ 858م)، وكان قبلها قد ولاه خطة الخيل (46)، ثم استوزره (47)، وولاه النظر في المظالم، فلما استحجبه استخصَّه دون أصحابه، واشتهر بالحلم والوقار والحصافة والعلم والمعرفة والحزم والجزالة، ولأنّه كان من أعيان رجال الموالي في الدولة فقد أعاده الأمير "عبد الرحمن" إلى الحجابة بعد أن احتال "نصر" الفتى الخصي في صرفه عنها (48).

ومن أشهر رجال هذه الأسرة كذلك "أحمد بن عبد الملك بن عمر بن محمد بن عيس بن شهيد" وهو أول من لقب بـ "ذي الوزارتين" بالأندلس(49)، وقد اشتهر بالهدية التي قدمها لـ "عبد الرحمن الناصر" والتي أفاض المؤرخون في وصفها (50). وتدلّ ضخامة هذه الهدية على مدى الغنى الذي وصلت إليه هذه الأسرة، والمال يعني عُلُوَّ القيمة السياسية والاجتماعية.

كثيراً ما عين الأمراء حُجَّابا من غير الأسر المعروفة، فكان ذلك تتويجاً لمشوار سياسي طويل، وولاء تام للدولة، فكان الحصول على هذا المنصب نتيجة نباهة وكفاءة شخصيتين، فهذا الأمير "عبد الله بن محمد" يعزل حاجبا من أسرة كبيرة وهو "عبد الرحمن بن أمية بن شُهيد"، ويولي مكانه "سعيد بن محمد بن السليم"(51)، لما كان قد أظهره من كفاءة وحزم عندما ولاه السوق ضبط أمر العامة رغم قصر المدة التي بلغت ثلاثين يوماً فقط، وكان قد اختبره قبل ذلك يوم أن كان بـ "شذونة" (52)، وهو لا يزال ولياً للعهد، وظهر منه صرامة أكسبته مهابة، حيث عاقب خادماً للأمير المطرف فاستحسن عبد الله ذلك، وقدمه لذلك على الوزارة ثم الحجابة(53).

ورغم الحضور القوي لسلطة "الناصر لدين الله" إلا أنّ تنافسا قويا حدث بين بعض الوزراء دولته، ويخفي هذا التنافس جانبا من الصراع الذي كان يحدث في الخفاء بين الأسر الكبرى من موالي بني أمية بقرطبة، ويبرز كذلك دور الخليفة القوي في كبح الصراعات بين أفراد حكومته.

وقد حرصت هذه البيوتات أن يبقى أمر الحجابة بينها وعدم خروجه عنها، واعتبرت ذلك حقاً مشروعاً، فوقفت بكل قوة أمام من يريد سلبها إياه، ولم يُدرك الحاجب "جعفر المُصحفي" هذه الحقيقة، فقد عمل على السيطرة على مناصب الدولة بعد تعيينه حاجباً، فعين أقاربه عل رأس الخطط الهامة في الدولة (54)، مما جلب له عداء الأهم أسر قرطبة، وكان مما أعان ابن أبي عامر" على "جعفر المصحفي" ميل الوزراء إليه وإيثارهم له عليه، وسعيهم في ترقيه، وأخذهم بالعصبية فيه، فإنها وإنْ لم تكن حمية أعرابية، فقد كانت سلفية سلطانية، يقتفي القوم فيها آثار سلفهم، ويمنعون بها ابتذال شرفهم، فقد كان ذلك العداء لـ"المُصحفي" عداءً قديماً، فلما أحضى "المستنصر"

"المصحفي" واصطنع وقدمه على غيره، حسدوه وذموه، وخصوه بالمطالبة، وكانت أشهر الأسر التي عادت "المُصحفي" وأعانت "ابن أبي عامر" عليه "آل أبي عبدة" وآل شُهيد" و"آل جهور" و"آل فطيس" (55). ويصف "ابن عذاري" مكانة هذه الأسر قائلاً: «وكانوا في الوقت أزمَّة المُلك، وقوام الخدمة، ومصابيح الأمة» (56). «فأحضوا "محمد بن أبي عامر" مشايعة و"المُصحفي" منازعةً، فرجحت كفَّة "ابن أبي عامر" بمُشايعة هذه الأُسر له، فأيقن "المُصحفي" بالهلاك وأيقن بالنكبة وزوال الرتبة»(57).

وخير ما يُعبرُ عن هذا الصراع ما قال "المُصحفي":

لا تأمن من الزمان تقلُّباً إن الزمان بأهله يتقلب

ولقد أراني والليوث تهابني وأخافني من بعد ذاك الثعلب

حسب الكريم مهانة ومذلة ألا يزال إلى لئيم يطلب

(58).

3 - التدرج الوظيفي: كُلِّف مُعظم حُجَّاب الدولة الأموية بمناصب عديدة قبل الوصول إلى هذا المنصب الرفيع، وأشهر مثال على هذا التدرج الوظيفي الذي يمكن أن يرتقي من خلاله المُوظف ليصل إلى أعلى المناصب في الدولة، ذلك الذي مرَّ به "محمد بن أبي عامر"، فهو من قبيلة "معارف" اليمنية، وكان جده "عبد الملك بن عامر المعارفي" من العرب القلائل الذين دخلوا، مع حملة طارق الأولى فأُقتطع له قطعة من الأرض بالجزيرة الخضراء (59). قدم "ابن أبي عامر" إلى "قرطبة" شاباً لا يملك إلا همة كان يحدث بها نفسه لإدراك المعالي (60)، وفتح دكانا عند باب القصر يكتب فيه للخدم والمُرافعين للسلطان، وبقي على هذا الحال مدة حتى طلبت السيدة "صُبح" من يكتب عنها، فعرفها به من كان يأنس إليه بالجلوس من فتيان القصر، فجرَّبته

واستحسنته(61)، ثم توسط له "جعفر المصحفي" القائم بدولة الحَكم عند القاضي "محمد بن إسحاق بن السليم"(62)، لكنّه سرعان ما سئم من تصرّفاته، وشكا ذلك لـ "المُصحفي"(63)، فلما طلب الخليفة "الحَكم" وكيلاً لولده "عبد الرحمن" الدَّارج في حياته، ذكر له "محمد بن أبي عامر" بخير، فأُختير من بين جماعة وُصفت لأم "عبد الرحمن" وذلك باختيار"جعفر" له، فلما مات "عبد الرحمن" صار وكيلا لأخيه الأصغر وولي العهد "هشام"، ثم عُيّن لأمانة دار السكة والمواريث وقاضياً على إشبيلية ولبلة، وفي سنة (361هـ/ 970م) عينه "الحَكم" على الشرطة الوسطى وأقره على المواريث، وبعث به إلى العدوة المغربية وجعله قاضي القضاة بالغرب من العدوة، وأمر عُمَّاله بأن لا ينفذوا شيئاً إلا بمشورته (64)، ثم ارتقى إلى الوزارة في أوائل خلافة "هشام المؤيد"(65)، ولبث فيها ستة أشهر وثلاثة أيام، وبعدها ترقى إلى الحجابة بعد عزل "المصحفي"(66).

والأمثلة على ارتقاء الموظفين إلى أعلى هرم الدولة المتمثل في منصب الحجابة كثيرة، فقد كَّلف " الخليفة الناصر" "جعفر المصحفي" بالشرطة الوسطى، والنظر في العديد من الأعمال والكور، وعُيّن على ولاية "ميورقة" (67) بعد توسُّط "الحَكم" عند أبيه فلمَّا أفضت الخلافة إليه قلَّده خطة الوزارة، وأمضاه على الكتابة الخاصة، ثم جمع له الكتابة العليا بالخاصة، ثم عين في منصب صاحب المدينة، ثم الحجابة (68).

والملاحظ في عملية ارتقاء الموظفين من منصب الوزير إلى منصب الحاجب أن كثيراً ما يكون لصاحب المدينة بقرطبة النصيب الأوفر في ذلك (69)، فقد نقل الخليفة "عبد الرحمن الناصر" الوزير صاحب المدينة بقرطبة "موسى بن محمد بن حدير" إلى منصب الحجابة خلفا لمولاه "بدر بن أحمد"

المتوفي سنة (309هـ/921م) (70). وهذا الوزير صاحب المدينة بقرطبة المصحفي"، يشغل منصب الوزير القائم بشؤون الدولة أثناء العلة الطويلة للخليفة الحكم "المستنصر"، ثم يُعَيَّن حاجبا للخليفة "هشام المؤيد" سنة (366هـ/ 976م) (71).

ويرجع سبب ذلك إلى أهمية منصب صاحب المدينة واكتساب صاحبه لتجربة سياسية مهمة تخلقها طبيعة المنصب من خلال احتكاكه بالعامة.

ومنصب صاحب المدينة من الخطط الدينية التي تفرعت عن منصب القاضي زمن الأمير "عبد الرحمن الأوسط" حيث مَيَّزَ صاحب السوق عن صاحب المدينة (72). وجعل الأُمويون لكل مدينة صاحب وهو المسؤول عن أمنها الداخلي، لكنّ الأقرب إلى الحَاكم هو صاحب المدينة بـ "قرطبة". وتتعدّد مهام صاحب المدينة، فزيادة على فرضه الأمن والأمان داخل المدينة فقد يكلف بحجابة الخليفة أثناء الاحتفالات الرسمية وزيارات وفود الأجانب(73).

ورغم أنّ صاحب المدينة لا يأخذ لقب الوزير بل هو أقل مرتبة منه، فإنّه يمكن أن يجمع لشخص في الدولة بين اللقبين بعد تكليفه بمهام أخرى، وهذا ما حدث لـ "عبد الواحد بن يزيد الإسكندراني" حيث استخدمه الأمير "عبد الرحمن الأوسط" ونقله من منازل الخدمة حتى خوَّلَهُ المدينة، ثم رقاه إلى الوزارة والقيادة (74).

4 - وراثة منصب الحاجب: لقد توارثت الأسر الكبرى في الأندلس بطريقة غير مباشرة منصب الحجابة، بتداولها في أحيان كثيرة بين "آل مغيث" و"آل أبي عبدة" وآل حدير" وغيرهم. وعلى العكس من ذلك فقد توارث "آل المنصور بن أبي عامر" للحجابة توارثاً مباشراً، فقد حرص "محمد بن أبي عامر" على توريثها أبنائه من خلال ضغطه على الخليفة "هشام المُؤيد" الذي

أصدر مرسوماً في هذا الشأن فرقَّاه ولقَّبه بـ "المنصور" وجرَّده من لقب الحجابة، ومنحها ابنه "عبد الملك" رغم حداثة سنِّه، كما عيَّن في منصب الوزارة ابنه الأصغر "عبد الرحمن شنجول"(75)، الذي سار على خُطا أبيه فبعد أن أجبر الخليفة "هشام المُؤيد" على تعيينه ولياً للعهد حرص على تعيين ابنه "عبد العزيز" خطّة الحجابة مجموعة له بسيف الدولة لقب عمه "المظفر"، فرُسِّم هذا الطفل بالحجابة بقية مدة ولاية أبيه.

لقد كان لهذا الحادث رموز ودلالات كثيرة، فهو يُبرز مدى المُستوى الذي وصلت إليه الحجابة في تلك المرحلة من مراحل عمر الدولة الأندلسية، ويجعلنا نحكم أن مرحلة أفول الدولة الأُموية قد بدأت فِعلياً، وبالفعل لقد أدخل الحاجب "عبد الرحمن بن أبي عامر" الدولة في متاهة، وأشعل فتنة كان نتيجتها مصرعه ثم سقوط الدولة الأُموية في الأندلس، وذلك من خلال تلاعبه بأمور الدولة وعدم احترامه لحدود صلاحياته.

ويمكن أن يكون الوصول إلى هذا المنصب بالقرعة مثل ما حدث مع "سفيان بن عبد ربه"، فبعد شغور منصب الحاجب بوفاة "عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث" تنافس الوزراء على خُطة الحجابة فأخذت الأمير "عبد الرحمن الأوسط" ضَجْرَةٌ، وأقسم أن لا يُولي واحدا منهم، وأمر بالإقراع بين الخُزَّان، فخرجت القرعة إلى "سفيان بن عبد ربه"(76)، وكان من بربر مصمودة (77)، لا قديم لأسلافه في هذا المنصب، وكانت هذه حالة فريدة في تاريخ الحجابة الأَندلسية.

ويمكن القول إنّ طُرق تعيين الحُجَّاب قد تنوعت، فلم تخضع عملية الاختيار لمعايير معينة مضبوطة، بل اختلفت من حالة إلى حالة ومن حاجب إلى آخر.

لقد كان تعيين الحُجَّاب يتمُّ عن طريق إصدار الأمير لكتاب ينصُّ على ذلك، ويتّضح ذلك جلياً عند الحديث عن تزوير "نصر" الصقلبي لكتاب اِدّعى أنّ الأمير "عبد الرحمن الأوسط" قد كلَّفه بتنفيذ مضمونه، وكان هذا الكتاب يحمل قرار عزل الحاجب "عيسى بن شهيد" وتعيين "عبد الرحمن بن رستم" بدلاً عنه (78)، وكان الكتاب الذي يُصدره الأمير يُخْتم بخاتم الدولة الرسمي ويُسلَّم بعد تنفيذه إلى مصلحة الخزانة العامة حيثُ يُسجَّلُ ذلك في سجلات خاصة، فتُضبط من خلالها رواتب الموظفين (79).

ورغم أنّ كُتب التاريخ الأندلسي تحدثت كثيراً عن تعيين الحُجَّاب فإنّها قلَّما تحدثت عن عزلهم، وحالة الوحيدة التي نجدها من خلال المصادر المُتوافرة هي عزل الأمير "عبد الله" لحاجبه "عبد الرحمن بن أمية بن شُهيد" وتوليَّة "سعيد بن محمد بن السليم" مكانه (80). وكثيراً ما كان عزل الحاجب عن منصبه يتم آلياً بوفاة الأمير أو الخليفة أو عزله عن الخلافة مثلما تكرَّر حدوثهُ زمن الفتنة، فكان الحاجب يترك منصبه مع ذهاب من يحجبه.

الهوامش:

1- ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار المغرب. بيروت: مكتبة صادر، د.ت. ج02، ج2، ص237، 238 .

2- المصدر نفسه، ص348. محمد بركات البيلي، دراسات في نظم الحكم في الدولة الإسلامية. القاهرة: دار النهضة العربية. 1408هـ/1988م، ص133.

3- أبو عبيد الله أبي بكر القضاعي بن الأبار، الحلة السيراء. الحلة السيراء. تحقيق: حسين مؤنس. القاهرة: دار المعارف. ط2، 1985. ج1، ص135.

4- الماوردي، أبو الحسن علي البغدادي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية. بيروت: دار الكتاب العربي، ط2، 1415هـ/ 1994م. ص192، 132.

5- صالح المزيد، المرجع السابق. ص28.

6- ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، دار الكتاب المصري واللبناني، القاهرة بيروت، ط2، 1998، ص89.

7- صالح بن محمد الفهد المزيد، أحكام وضع الحجاب على أبواب السلاطين والولاة والكتاب. القاهرة: مطبعة المدني. ط1. 1413هـ/1992م. ص28.

8- ابن حيان، المقتبس، ق02، ص152.

9- المصدر السابق، ص155.

10- رينهت دوزي، المسلمون في الأندلس (اسبانيا الإسلامية). ترجمة وتعليق: د.حسن حبشي. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ج2. ص213.

11- ابن حيان المقتبس. ق02. ص144.

12- نفس المصدر، نفس الصفحة.

13- ابن الأبار، نفس المصدر. ص120؛ سيتم شرح ذلك أكثر عند الحديث عن ترتيب الجلوس في مجلس الوزراء في الفصل الثالث المبحث الثالث.

14- عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، دار الكتاب اللبناني، مكتبة المدرسة، 1982. ص327.

15- ابن عذاري، المصدر السابق، ج2، ص120.

16- المصدر نفسه، ج2، ص237.

17- نفسه. ج2، ص240، 246، 259.

18- استشار سليمان بن عبد الملك "مغيث" في تولية "طارق بن زياد"على الأندلس، فسأله: "كيف أمره في الأندلس؟"فرد: "لو أمر أهلها بالصلاة إلى أي قبلة شاء لتبعوه ولم يروا أنهم كفروا"، فلما لقي طارق مغيث أخبره عما قاله لسليمان فقال طارق: "ليتك وصفت أهل الأندلس بعصياني، ولم تضمر في الطاعة ما أضمرت". أحمد بن محمد التلمساني المقري، نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب. تحقيق: إحسان عباس. بيروت: دار صادر، (1408هـ/1988م)، ج3. ص13.

19- المصدر نفسه، ج3. ص13.

20- ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ط1،بيروت: دار الكتب العلمية،1992، مج4. ص150.

21- ابن الأبار، الحلة السيراء، ج1، ص135 .

- سرقسطةZaragoza تتصل أعمالها بأعمال تطيلية، ذات فواكه عذبة، وهي مبنية على نهر كبير، وقد انفلادت بصناعة السِّمّور؛ أبو عبد الله ياقوت الحموي، معجم البلدان، م. بيروت: دار الفكر، مج3. ص212،.213

22- ابن حيان، المقتبس. ق02، ص31؛ ابن الأبار، الحلة السيراء. ج2، ص135، 136.

23- قلمرية COIMBRA مدينة تقع على مصب نهر منديق في المحيط الأطلسي على الساحل الغربي للأندلس (بلاد البرتغال حالياً) على بعد نحو مائة كيلو متر إلى شمال غرب غرناطة، وشمال شرق الأشبونة. ابن حيان، المقتبس. ق02. ص526. ترجمة: 320.

24- ابن حيان، المقتبس. ق02. ص154.

25- معركة حاسمة وقعت بين مروان بن الحكم والضحاك بن قيس الفهري، وكان ذلك يوم جمعة 10 من ذي الحجة (عيد الأضحى) سنة 64هـ، فدارت الدائرة لمروان على الفهري وقتل معه سبعون ألفاً، من قيس وقبائلهم. ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس. ص49.

26- ابن الأبار، الحلة السيراء. ج1، ص246.

27- المقري، المصدر السابق.ج3، ص45.

28- ابن الأبار، الحلة السيراء. ج1، ص246.

29- ابن عذاري، المصدر السابق. ج2، ص91.

30- ابن الأبار، الحلة السيراء، ، ج2، ص30.

31- نفس المصدر ونفس الصفحة.

32- نفسه، ج1، ص247.

33- ابن عذاري، المصدر السابق، ج2، ص141.

34- نفسه. ج2، ص227. ابن حيان، المقتبس. ق03. ص5.

35- ابن الأبار، الحلة السيراء. ج1. ص245.

36 -هو عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر، كنيته أبو المطرف، لقب بالمستظهر بويع في رمضان(414هـ/1023م)، وقُتل في ذي القعدة من نفس السنة. اشتهر بالذكاء والفطنة والأدب والورع. ابن عذاري، المصدر السابق. ج3، ص135؛ ابن الأبار، الحلة السيراء، ج2، ص12؛ محمد بن عبد المنعم الحميري ، الروض المعطار في خبر الأقطار. تحقيق: إحسان عباس. بيروت: مكتبة لبنان. ط2، 1984، ص27.

37- عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب. تحقيق: الأستاذ محمد سعيد العريان. القاهرة: مطابع شركة الإعلانات الشرقية(لجنة إحياء التراث)، 1383هـ/1963م. ص93؛ دوزي، المرجع السابق، ج2. ص213.

38- يميل فريق من المؤرخين المُحدثين إلى التمييز بين "بني جهور" أصحاب قرطبة وهم الذي ينتمي نسبهم إلى "أبي عبدة حسان بن مالك" وبين أسرة أخرى تسمى كذلك بـ"الجهاورة البختيين" نسبة إلى "جهور بن يوسف بن بخت" حاجب عبد الرحمن الداخل، في حين أن بعض المصادر العربية قد خلطت بين البيتين، فـ"ابن عذاري" يذكر في معرض حديثه عن دولة "بني جهور" في قرطبة أن مؤسسها هو "جهور بن محمد بن جهور بن عبد الملك بن جهور بن عبد الله بن أحمد بن محمد بن الغمر بن يحي بن عبد غافر بن يوسف بن بخت

بن أبي عبدة"' وذكر أن الجد الأول لهذه الأسرة كان فارسي الأصل وأنه كان مولى لعبد الملك بن مروان وأن ابنه "يوسف بن بخت" دخل الأندلس قبل دخول عبد الرحمن بن معاوية بعدة سنين، وكان أحد كبار الموالي بقرطبة؛ وقد سار "ابن الخطيب" في نفس طريق "ابن عذاري" في نسبة أبي حزم جهور بن محمد بن جهور إلى عبد غافر بن يوسف بن بخت بن أبي عبدة" الذي كان لدخوله على حد وصفه أثر كبير في جمع كلمة الأموية.

39- ابن الأبار، الحلة السيراء، ج1، ص238.

40- المقري، المصدر السابق.ج3، ص45.

41- ابن الأبار، الحلة السيراء، ج1. ص ص236-237.

42- ابن خلدون، العبر، ج4، ص149.

43- مؤلف مجهول، أخبار مجموعة. ص101 .

44- تدمير Todmir كورة بالأندلس تتصل بأحواز كورة جيان، وهي شرقي قرطبة، ولها معادن كثيرة ومعاقل ومدن وبساتين. ياقوت الحموي، المصدر السابق، مج2، ص19.

45- ابن الأبار، الحلة السيراء، ج1. ص ص236-237.

46- ابن حيان، المقتبس. ق02. ص26.

47- ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس.ص89.

48- ابن حيان، المقتبس. ق02. ص27.

49- ابن الأبار، الحلة السيراء، ج1.ص238.

50- ابن خلدون، العبر، مج4. ص165.

51- ابن عذاري، المصدر السابق. ج2، ص227.

52- شذونة Sidonia بفتح أوله وبعد الواو الساكنة نون مدينة بالأندلس تتصل نواحيها بنواحي مورور من أعمال الأندلس وهي منحرفة عن مورور إلى الغرب مائلة إلى القبلة. ياقوت الحموي، المصدر السابق. مج3، ص329.

53- ابن حيان، المقتبس. ق03. ص05 ؛ ابن القوطية، المصدر السابق. ص115.

54- سالم خلف، المرجع السابق. ج1، ص427.

55- ابن عذاري، المصدر السابق. ج2، ص405.

56- ابن عذاري، المصدر السابق. ج2، ص405.

57- المصدر نفسه، ص406.

58- نفس المصدر والصفحة.

59-)؛ ابن حزم أبو محمد علي بن أحمد، جمهرة أنساب العرب. تحقيق عبد السلام هارون. القاهرة: دار المعارف، 1391هـ/1971. ص419، 420. ابن بسام، أبو الحسن علي الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق: إحسان عباس. لبنان، تونس: الدار العربية للكتاب (1395هـ/ 1975م). ق4، مج1، ص56.

- الجزيرة الخضراء Algeciras مدينة مشهورة بالأندلس وقبالتها من البر بلاد البربر سبتة وأعمالها متصلة بأعمال شذونة وهي شرقي شذونة وقبلي قرطبة ومدينتها من أشرف المدن وأطيبها أرضا. ياقوت الحموي، المصدر السابق. مج2، ص136.

60- الحميدي، أبو محمد بن أبي النصر فتوح بن عبد الله ، جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس. بيروت: دار الكتب العالمية.1417هـ/ 1997م، ص69.

61- المقري، نفح الطيب، ج1. ص399.

62- كان "محمد بن اسحاق بن السليم أبو بكر" من الفقهاء المشهورين وله عند أهل بلاده جلالة مذكورة ومنزلة في العلم، ولد سنة302هـ/914م، ورحل إلى المشرق سنة 332هـ/943م، ولما عاد ولي أحكام المظالم ثم قاضي الجماعة سنة (356هـ/ 967م) بعد وفاة منذر بن سعيد. الحميري، جذوة المقتبس، ص39؛ ، أبو مروان بن حيان القرطبي، المقتبس في أخبار بلد الأندلس. تحقيق: عبد الرحمن علي الحجي. بيروت: دار الثقافة. 1965. القطعة 05. ص149.

63- دوزي، المرجع السابق، ج2. ص74.

64- المرجع نفسه، ص78.

65- ابن الأبار،الحلة السيراء.ج1. ص258. ابن عذاري، المصدر السابق. ج2، ص378،371،363.

66- أحمد بن عبد الوهاب النويري ، تاريخ المغرب الإسلامي في العصر الوسيط (من كتاب نهاية الإرب في فنون الأدب). تحقيق وتعليق: د. مصطفى أبو ضيف أحمد. الدار البيضاء: دار النشر المغربية. ص121.

67- ميورقة Mallorca جزيرة في شرقي الأندلس بالقرب منها جزيرة يقال لها منورقة، غربها جزيرة يابسة. الحميري، المصدر السابق. ص567. ياقوت الحموي، المصدر السابق. مج5، ص246. الحميري، المصدر السابق. ص567.

68- ابن عذاري، المصدر السابق. ج2، ص379. ابن حيان، المقتبس، ق05. ص 22.

69- البيلي، المرجع السابق. ص130

70- ابن حيان، المقتبس . ق04. ص103، 173.

71- ابن حيان، المقتبس. ق04. ص 22. ابن عذاري، المصدر السابق، ج2، ص379.

72- ابن سعيد، المصدر السابق. ج1، ص46.

73- نفس المصدر. نفس الصفحة. ابن حيان، المقتبس، ق02. ص81.

74- ابن حيان، المقتبس، ق2. ص31.

75- ابن عذاري، المصدر السابق. ج2. ص 438.

76- ابن القوطية، المصدر السابق. ص78.

77- ابن حزم، جمهرة المصدر السابق، ص500.

78- ابن حيان، المقتبس، ق2. ص67.

79- ليفي بروفنسال، المرجع السابق. ص207.

80- ابن حيان، المقتبس. ق03. ص53. ابن القوطية، المصدر السابق. ص115. ليفي بروفنسال، المرجع السابق، ص227.